

موقف فقهاء قورارة وتوات من الغزو السعدي دراسة فقهية تاريخية

The position of the jurists of Gourara and Tawat on the Saadian invasion, a historical jurisprudential study

عبد العزيز موساوي *

جامعة غرداية (الجزائر)

abomohamedalim@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/01/10 تاريخ القبول: 2023/04/08 تاريخ النشر: 2023/06/18

ملخص:

كانت ولا تزال إشكالية تعامل الفقيه مع الساسة والسياسة محل إشكال قديم متجدد ومن مظاهره التاريخية ما حدث في منطقة هامة من مناطق الجزائر وهي منطقة تيكورارين وتوات والتي تعرف يومنا هذا ب:-تيميمون وأدرار -والتي تعرضت لغزو واحتلال من طرف الدولة السعدية الحاكمة في المغرب الأقصى في أواخر القرن العاشر الهجري، وكانت السلطة المحلية بيد الفقهاء الذين رفضوا الانصياع وبعضهم استسلم تغليبا للمصلحة.

الكلمات المفتاحية: فقهاء؛ تيكورارين؛ توات؛ الغزو؛ السعديون.

Abstract:

The position of the jurists of Gourara and Tawat on the Saadian invasion, a historical jurisprudential study.

The problematic of the jurist's dealings with politicians and politics was the subject of an old and renewed problem, and one of its historical manifestations was what happened in an important region of Algeria, which is the region of Tikurarine and Tawat, which is known today as Timimoun and Adrar, which was invaded and occupied by the ruling Saadian state in the Far Maghreb, the local authority was controlled by the jurists whom refused to obey and some of them surrendered in order to prevail over the interest.

Keywords. : jurists; tickurarin; Tawat; The invasion; the Saadians.

1. مقدمة:

تعتبر قضية العلاقة بين الفقهاء وحكام الدول على مر التاريخ من أعوص الإشكالات لتعلقها بمناح وعلائق كثيرة منها ما يتصل بالواقع وما يمليه من إكراهات على الضمير والقيم المتشعبة بأصول الدين ومنها ما يتصل بنصوص الوحي الصارمة التي تضبط خطوط الحكم الإسلامي وكيفية تنزيلها على ذلك الواقع المتشعب وهذه مهمة الفقهاء وعلماء الشريعة، فتارة يداهنون وتارة يدارون وتراهم أحيانا في بعض الدول هم المسيطرون، وليت الأمر وقف هنا لأن التاريخ ينبئنا عن فقه التبرير للمتغلبين المتسلطين، وفقه التغرير بالثائرين بحق أودونه، ولعل التحقيق في كثير من مسائل التاريخ يكشف عن براءة الفقهاء مما قد يتهمون به وعن مرونتهم ومعالجتهم لواقع الأمر على حسب ما تقتضيه الشريعة دون الإفتئات عليها أو التعدي على حدودها.

ومن جزئيات هذه القضية التي يمكن البحث فيها ما وقع قديما في القرن التاسع الهجري حين غزت الدولة السعدية التي حكمت المغرب الأقصى أرضا من أراضي الجزائر وهي قورارة وتوات في حملتها التوسعية الكبرى لضم السودان الغربي إلى حكمها، ورغم ضخامة الحدث تاريخيا باعتراف كتاب ومؤرخي الدولة السعدية أنفسهم؛ إلا أنه لم يحظ بالبحث الوافي من ناحية التحليل والدراسة التاريخية وظلت أحداثه طي التناسي والكتمان، وبذلك تتجلى أهمية هذه الدراسة إذ إنها تلامس علاجا لقضية كبرى شغلت الجانب الفقهي وهي العلاقة بين الفقيه والحاكم المتغلب المسلم، كما ستساهم في رفع بعض الغبش عن فترة تاريخية وبقعة جغرافية وأحداث كان الفقهاء أهم أطرافها، غير أن البحث سيركز على الجانب الشرعي والتأصيلات الفقهية للحدث، فيكون الإشكال الذي يتناوله البحث يتعلق بمدى شرعية الغزو ابتداء وما موقف فقهاء المنطقة منه ؟

ونشير إلى أن الإشكال الذي يتعلق بالموقف الشرعي من ذلك الغزو عموما قد سبق إليه بعض المؤلفين قديما، لكن البحث سيركز على الجزئية التي تخص الحدود المكانية بأحداثها وأشخاصها.

2. التعريف بالمنطقة وأعلامها:

توطئة:

يطلق لفظ توات ويراد به:

أ- الإقليم الأكبر الذي يصل إلى حدود واد الساوره شمالا إلى صحراء تنزروفت جنوبا.

ب- الإقليم الواسع الممتد من منطقة تيلكوزة شمالا إلى عين صالح جنوبا.

ج- قسم لإقليم قورارة أو تيكورارين-تيميمون- شمالا وتيدكلت-رقان- جنوبا، فتكون توات

—أردار حاليا- هو القسم الأوسط في الأقاليم الثلاثة.¹

ويختص البحث بإقليمين اثنين وهما الأشهر ذكرا في كتب الأقدمين تيكورارين وتوات.

1-2 التعريف بمنطقة -تيكورارين، و-توات:-

أ -تيكورارين -(تيميمون):

أما اسم تيميمون فهو الاسم الحالي للمنطقة: كما تعتبر عاصمة لإقليم تيكورارين الممتد، فهنا إطلاقان في الزمن المعاصر:1- نعني به المنطقة أو الإقليم 2- ونعني به مركز الإقليم وعاصمته الإدارية بل والتاريخية. وتيميمون اسم محرف عن تينيمون هكذا تسمى في بعض المصادر التاريخية² وفي بعضها تنمون، وأما تيكورارين، فالظاهر أنه الإطلاق الأقدم والأشهر، وقيل معناه-المعسكرات-³ يقول ابن خلدون: "ومن هذه القصور قبلة تلمسان، وعلى عشر مراحل منها قصور تيكورارين وهي كثيرة تقارب المائة في بسيط واد منحدر من المغرب إلى المشرق، واستبحرت في العمران وغصت بالسكان. وأكثر سكان هذه القصور الغربية في الصحراء بنو يامدس هؤلاء ومعهم من سائر قبائل البربر مثل ورتطغير ومصاب وبني عبد الواد وبني مرين، وهم أهل عدد وعدة وبعد عن هضمة الأحكام وذلّ المغارم، وفيهم الرّجاله والخيالة وأكثر معاشهم من بلح النخل، وفيهم التجار إلى بلاد السودان."⁴

¹ ينظر فرج محمود فرج، ص1: أحمد بالصافي جعفري، ص359، 583.

² ينظر أبو فارس عبد العزيز الفشتالي، ص76.

³ ينظر الحسن بن محمد الوزان، 133/2.

⁴ ابن خلدون، 1408هـ، 7/76.

ويقول الحسن بن محمد الوزان: "تيكورارين منطقة مأهولة في صحراء نوميديا بعيدة بنحو مائة وعشرين ميلا عن شرق تسبت حيث يوجد ما يقرب من خمسين قصرا وأكثر من مائة قرية بين حدائق النخيل وسكان هذه المنطقة أغنياء لأنهم اعتادوا الذهاب كثيرا بسلعهم إلى بلاد السودان وهنا مجمع القوافل لأن تجار بلاد البربر ينتظرون تجار بلاد السودان ثم يذهبون جميعا"⁵ ويكاد هنا الحسن الوزان يتفق تماما مع ابن خلدون وذلك في عدد القرى والقصور وكذلك التعداد البشري فهي منطقة مأهولة عند الوزان؛ وابن خلدون وصفها بالاستبحار في العمران وأنها قد غصت بالسكان واتفقا في وصف النشاط التجاري للسكان، ويزيد ابن خلدون مؤكدا على عمارتها بقوله في موضع آخر: "وفي شرقي تسابيت إلى ما يلي الجنوب قصور تيكورارين تنتهي إلى ثلاثمائة أو أكثر في واد واحد، فينحدر من المغرب إلى المشرق، وفيها أمم من قبائل زناتة"⁶ غير إن مؤرخ الدولة السعدية-عبد العزيز الفشتالي علق على كلام ابن خلدون هنا بقوله: "وتقدير ابن خلدون عمران القطر وقصوره بما ذكر تقريب لا تحرير يشهد بذلك العطف بأو -الشكية- من قوله أو أكثر وإلا فالذي يدل عليه خبر من لقيناه بالأبواب العلية من وفد البلاد وأجنادها أن ذلك أكثر مما ذهب إليه ابن خلدون بأضعاف؛ إلا أن يكون قد قصد فيما ذهب إليه تيكورارين دون توات بدليل سكوته عنها فلا يبعد عن الصواب."⁷

وكل هذه النقول تجمع على حقيقة واحدة بارزة وهي أن منطقة تيكورارين لم تكن بالقفر المهمل تاريخيا أو جغرافيا رغم بعده عن مراكز الدول ورحى أحداثها وحركتها، بل يجعله الفشتالي أعظم أقاليم المغرب على الإطلاق، وهذا فرض ممكن جدا باعتبار أن المنطقة يسودها الأمن والسلام؛ الذي عز وجوده في ذلك الزمن نظرا للأوضاع غير المستقرة شمالا، بفعل تقلب الدول والحروب المستمرة بينها، فقال وهو يبين ميزات المنطقة أو يعقد مقارنة بين قطري توات وتيكورارين: "وإلى قطر تيكورارين وهو أعظم اشتهارا وأعرف نقيبا وأشد شوكة وأخشن جانبا وأعظم أقاليم المغرب وأكثرها أمما وأفسحها خطة انتظم عرانه واتصلت نخيله وتراصفت قصوره على مسافة ثلاثين مرحلة أو أكثر..."⁸.

⁵ الحسن الوزان 133/2

⁶ ابن خلدون 134/6

⁷ الفشتالي ص 73.

⁸ المصدر السابق، الصفحة نفسها.

ب-توات، (أدرار):

ومثل ما قيل عن تيكورارين، قيل أيضا عن منطقة توات التي وصفها ابن خلدون بقوله: "فمنها على ثلاثة مراحل قبلة سجلماسة، ويسمى وطن توات، وفيه قصور متعددة تناهز المائتين، آخذة من المشرق إلى المغرب وآخرها، من جانب المشرق يسمى تمنطيت، وهو بلد مستبحر في العمران، وهو محط ركاب التجار المترددين من المغرب إلى بلد مالي من السودان لهذا العهد، ومن بلد مالي إليه، وبينه وبين ثغر بلاد مالي المسقى غاو، المفازة المجهلة لا يهتدي فيها للسبل، ولا يمر الوارد إلا بالدليل الخبير من المثلثين الطواعن بذلك القفز، يستأجره التجار على الدربة بهم فيها بأوفر الشروط، وكانت بلد بودى وهي أعلى تلك القصور بناحية المغرب من بادية السوس هي الركاب إلى والاتن الثغر الآخر من أعمال مالي. ثم أهملت لما صارت الأعراب بادية السوس يغيرون على سابقتها ويعترضون رفاقها، فتركوا تلك ونهجوا الطريق إلى بلد السودان من أعلى تمنطيت."⁹ فقطر توات مستبحر في العمران أيضا وهي محطة للتجار بين مالي وأقطار الشمال وما بينها ومالي صحراء مقفرة خالية صعبة المسالك، وهو ماجعله أوسع وأكبر مساحة من قطر تيكورارين كما ذهب إليه الفشتالي لما عرف بالإقليمين وقارن بينهما في كتابه فقال: "...إلى قطر توات وهو أوسع وطنا وأفصح مجالا وأقرب للسودان اتصالا وجوارا"¹⁰ فهو يتميز بالمساحة الممتدة حتى يصل إلى السودان (مالي)، وذكر بلدين من توات تعتبران مراكز عبور إلى السودان وهما بودى (بودة) وتمنطيت (تمنطيط)، وهي عاصمة لإقليم توات "وقاعدة قصورها ولدة تينميمون وقريعتها في العصابة والرياسة."¹¹

⁹ ابن خلدون 77/7.

¹⁰ الفشتالي ص 73.

¹¹ المصدر نفسه، ص 77.

2.2 فقهاء المنطقة وسلطتهم السياسية:

نظرا لكون المنطقة بعيدة نسبيا عن الدول، وجغرافيتها الصعبة التي تتمثل في إحاطتها بالرمال؛ فهي تشبه الجزيرة الخضراء داخل بحر متلاطم من القفار والرمال التي يعجز الناس عن عبورها، فكانت بعيدة عن حكم دولة الخلافة العثمانية الكبرى التي تواجدت في الجزائر شمالا، و هي أبعد عن الدولة السعدية التي ترفض أن تكون تابعة للخلافة الإسلامية الكبرى رغم ضعفها وسلطتها على مساحة صغيرة من العالم الإسلامي الكبير الذي كان جله تابعا للعثمانيين، وهذا سبب آخر جعل المنطقة مأوى للزهاد والفقهاء والمتعبدين، الذين يقصدون تلك المنطقة للتفرغ للعبادة والعلم بعيدا عن إشكالات السياسة التي عصفت بعقول الكثيرين.

أ-التعريف بأعلام المنطقة:

من بين أبرز الفقهاء الذين كان لهم تأثير في المنطقة على سبيل المثال:

-محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي:¹²

"التلمساني خاتمة المحققين الإمام العالم العلامة الفهامة القدوة الصالح السني أحد الأذكياء ممن له بسطة في الفهم والتقدم متمكن المحبة في السنة وبعض أعداء الدين، وقع له بسبب ذلك أمور مع فقهاء وقته حين قام على يهود توات وألزمهم الذل بل قتلهم وهدم كنائسهم ونازعه في ذلك الفقيه عبد الله العصنوني قاضي توات وراسلوا في ذلك علماء فاس وتونس وتلمسان"¹³ وقضية المغيلي مع اليهود طارت بها الركبان إذ بلغ صدها أقطارا وتكلم فيها فقهاء ذلك الزمن بين مؤيد ومعارض، وهذا في نفسه يعني مدى السلطة التي تمتع بها الفقيه في أرض توات وحضوره العلمي والحركي " وكان، رحمه الله، مقدامًا على الأمور جسورًا جريء القلب فصيح اللسان محبًا في السنة جدليًا نظرًا محققًا. له تأليف منها: البدر المنير في علوم التفسير ومصباح الأرواح في أصول الفلاح كتاب عجيب في كراسين أرسله للسنوسي وابن غازي فقرضاه، وشرح مختصر خليل سماه مغني النبيل اختصر فيه جدًا وصل فيه للقسم بين الزوجات، وله عليه قطع آخر من البيوعات وغيرها بل قيل إنه

¹² - ينظر ترجمته، أحمد بابا التنبكي، ص 576؛ محمد بن محمد بن عمر بن علي ابن سالم مخلوف، 395/1. خير الدين بن محمود، الزركلي،

216/6.

¹³ - أحمد بابا بن أحمد التنبكي، ص 576.

شرح ثلاثة أرباع المختصر وحاشية عليه سماها إكليل الغني وقفت منها إلى التيمم، وشرح بيوع الآجال من ابن الحاجب فبحث فيه مع ابن عبد السلام و خليل وتأليف في المنهيات ومختصر تلخيص المفتاح وشرحه ومفتاح النظر في علم الحديث فيه أبحاث مع النووي في تقريبه وشرح الجمل في المنطق و.... أخذ عن الإمام عبد الرحمن الثعالبي والشيخ يحيى بن بدير وغيرهما، وأخذ عنه جماعة كالفقيه أيد أحمد والشيخ العاقب الأنصمي ومحمد بن عبد الجبار الفيحي وغيرهم¹⁴. توفي بأرض توات سنة 909هـ.¹⁵

عبد الله بن أبي بكر العصنوني :

أحد كبار فقهاء توات ومفتي ديارها في وقته كان لا يفتي إلا بالادلة المعتبرة شرعا، تولى القضاء بتمنيط على أرض توات كلها، مدة طويلة وعارض بلديه المغيلي في قضية اليهود إذ رآهم أهل ذمة لا يحل نقض عهدهم وإباحة دماءهم، ووافقه أكثر الفقهاء، كما وافق بعضهم رأي المغيلي، توفي سنة 927هـ.¹⁶

-سالم بن أبي بكر بن عثمان بن أبي بكر العصموني:

ابن أخ عبد الله العصنوني المذكور وتلميذه، ولد سنة 882هـ، وينتهي نسبه إلى الحسين بن علي ؑ، تولى قضاء الجماعة في توات سنة 914هـ، أسلم على يديه كثير من الوثنيين بالسودان، توفي سنة 968هـ.¹⁷

عبد الرحيم بن عبد الله العصنوني:

عالم مشارك مبرز في النحو والفقه، درس في المشرق على علماء مصر والشام، توفي حوالي 990هـ.¹⁸

¹⁴ المصدر السابق، الصفحة نفسها وما بعدها مع بعض الاختصار.

¹⁵ ينظر المصدر نفسه ص 577.

¹⁶ ينظر محمد حيي، 631/2.

¹⁷ ينظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها، أبا الصافي أحمد جعفري، 41/1.

¹⁸ ينظر محمد حيي 632/2.

محمد بن محمد بن أبي بكر العصنوني:

فقيه محدث درس في الصحراء والسودان ومراكش وله سند عال في الحديث يتصل بالحافظ ابن حجر، عمل في التدريس بتوات كما وفد على مراكش فدرس بها مدة والتقى بأحمد بن القاضي فأجازه في الحديث وأخذ هو عنه الحساب والفرائض، توفي سنة 1010هـ.

-عمر بن صالح الأوكرتي الجراري:

فقيه مشارك تخرج في فاس على يد أئمة القرويين كما أخذ عن سيدي محمد بن أبي بكر الودعاغي بتيكوارين؛ ثم انتصب للتدريس في تيكوارين مدة طويلة حتى عد شيخ الجماعة بها وقد قصده الطلبة حتى من تافيلالت ومنهم الأديب عبد الحكيم بن عبد الكريم السجلماسي، توفي قبل 998هـ.¹⁹

-محمد بن عبد الله بن عبد الكريم الوطاسي الجراري:

فقيه أديب صوفي أسند إليه أحمد المنصور مهمة القضاء في تيكوارين وما وراءها من المناطق الصحراوية فكان قاضي الجماعة هناك، توفي سنة 1017هـ.²⁰

محمد بن إسماعيل المسناوي الجراري:

الفقيه المتصوف صاحب المكتبة العظيمة بتيكوارين، التي اقتنى معظم كتبها من -اصطمبول- بواسطة الوزير الأعظم هناك واستجلب أخرى من الجهات التي زارها في شمال إفريقيا والسودان ومصر والحجاز واليمن والعراق وغيرها، وقد أوصى بها عند موته أن تحمل إلى الحرم النبوي فلم يحمل منها إلا الشيء اليسير وتبددت في الصحراء، قال عنه العياشي بعد ترجمة له طويلة فقد لقيه قبل موته بأشهر: "وبالجملة فهذا الرجل أعجوبة زمانه ونادرة وقته سخاء وذكاء ودهاء ونجدة وعلو همة لولا ما ابتلاه الله من وسوسة الإمارة التي توسوس في دماغه"²¹، دخل معظم البلاد الإسلامية شرقا وغربا مدعيا المهدوية²² فلم

¹⁹ ينظر القادري محمد بن الطيب، نشر المثاني، 74/1؛ محمد حيي 629/2.

²⁰ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

²¹ عبد الله بن محمد العياشي، 111/1.

²² ادعاء المهدوية تهمة أطلقها بعض المؤرخين للموالين للسلطة على كل من عارض حكامهم كابن أبي محلي الثائر، ولهذا استبعد ثبوتها على مثل محمد بن إسماعيل المسناوي الذي عاش زاهدا في منطقة صحراوية واختار أن يموت فيها، ولعله كان معارضا قويا لحكم السعديين والله أعلم.

يتم له أمر ثم رجع في آخر حياته إلى أرض بتيكورارين حيث مات بها سنة 1046هـ، بعد أن أعتق عبيده وفرق عليهم ماله وأوصى بفرسه للجهاد.²³

-الحاج بلقاسم بن الحسين الأوسيفي:

الولي الصالح الشهير، من أكابر مشايخ تيكورارين، ولد سنة 921هـ، بتيكورارين، أخذ عن علي بن إبراهيم بتادلا بالمغرب الأقصى، ولما رجع أسس زاويته المعروفة باسمه إلى اليوم، وتخرج عليه تلاميذ كثير منهم أبو محمد بن أحمد الجزولي وعباد بن أحمد وأحمد بن يوسف، كما أسس احتفالية أسبوع المولد بالمنطقة، ترك مؤلفات عدة منها مخطوط في التصوف عنوانه منهاج السالكين²⁴، وقصائد في مدح النبي ﷺ وقصيدة مشهورة -محلها- في العقيدة، وغيرها.²⁵

ب-تأثير الفقهاء في المنطقة وسلطتهم:

أما سلطة هؤلاء الفقهاء فكانت سلطة شعبية ظاهرة جلية يدعمها أمران:
-الخلو من حكم الدول القائمة في ذلك العصر لأسباب ذكرناها قبل وأهمها، الجغرافيا التي تتمثل في وجود تلك المناطق بالصحراء الشاسعة القاحلة البعيدة التي دونها مفاوز تهلك بها الجيوش .

-الضرورة الشرعية لوجود الحاكم الذي يفصل بين المتنازعين، ويضبط أمور المعاش والمعاد، فلا يعقل وجود مجتمع مسلم تحكمه الفوضى ولا شأن له بشريعته التي يؤمن بها والتي نزلت لتنظم له أمر حياته الدنوية والأخروية.

أما مظاهر سلطة الفقهاء على الشأن الاجتماعي والاقتصادي فيظهر في أمرين على سبيل المثال:

-انتماء الفقهاء للصوفية، واشتهارهم بأمر السلوك والتربية والعبادة، ويفسره تواجدهم بالصحراء الخالية البعيدة عن زخارف الدنيا ومشتياتها، فكان الناس مريدين لهم ومتبعين لهم أكثر من أن يكونوا طلبة فقه وعلم يردون على المشايخ ويناقشونهم.

²³ ينظر العياشي، 108/1؛ القادري، محمد بن الطيب، التقاط الدرر، ص 134، محمد حجي 630/2.

²⁴ وهو مخطوط أملك نسخة منه.

²⁵ ينظر شهاب الزين أحمد الطاهر بن عبد المعطي السباعي الإدريسي، ص 235، أبا الصافي أحمد جعفري، الحركة الأدبية 39/1.

-تأسيس حفل أسبوع المولد النبوي بمنطقة تيكورارين في القرن العاشر من طرف الحاج بلقاسم بن الحسين الأوسيفي بعد مشاورة مشايخ المنطقة وموافقتهم ، فكانت تظاهرة اجتماعية تلتقي فيها قبائل المنطقة لمناقشة القضايا التي تهمهم كالإصلاح بين القبائل المتخاصمة ، وزيادة التواصل بين القبائل المتوافقة، أما الشأن الاقتصادي فيعالجونه في ذات الملتقى السنوي بمناسبة أسبوع المولد فمن كان له فضل قمح أو شعير أوتمر أتى به إلى زاوية الشيخ فيوزع على أهل المسكنة والإقلال من القبائل والعشائر.²⁶

وأما المظهر السياسي لنفوذ أمر الفقهاء فيبرز على سبيل المثال في قضية اليهود وإجلائهم والتضييق عليهم في المنطقة من قبل الفقيه محمد بن عبدالكريم المغيلي؛ الذي حرص عليهم وأمر بهدم بيعهم وكنائسهم، ورغم أن القضية أخذت أبعادا فقهية واسعة واختلفت فيها الأنظار؛ إلا إن الكلمة كانت للفقيه على أرض الواقع إذ عبأ أنصاره وأتباعه وحملوا السلاح وهددوا كل من يقف في طريقهم لتغيير المنكر واستطاع بذلك قمع شوكة اليهود ومحاصرتهم سياسيا واقتصاديا في كل من أرض توات وتيكورارين إلى غير رجعة، وهذا أظهر مثال على ما يمكن أن يفعله الفقيه بفضل نفوذه المجتمعي وسلطته الشعبية؛ فهذا المظهر من التغيير بالسلاح أشبه بسلطة دولة متكاملة الأركان.²⁷

3. الغزو السعودي بين التأصيل الشرعي (الفقهي) والتبرير السياسي:

1.3 الدولة السعودية وغزوها للمنطقة:

الدولة السعودية أودولة الأشراف هكذا سماها المؤرخون المغاربة كصاحب الاستقصاء، لأن ملوكهم يقولون أنهم أشراف من ولد محمد النفس الزكية، وأما تسميتهم بالسعديين فلم تكن معروفة في أول أمرهم ولا هم أطلقوها على أنفسهم ولم يحلوا بها في سجلاتهم ورسائلهم، بل أطلق عليهم السعديين من كان يطعن في نسبهم -الشريف- ويزعم أنهم من قبيلة بني سعد بن بكر (قبيلة حليلة السعدية مرضعة النبي ﷺ)، ويعتقد العامة الذين يطلقون عليهم ذلك الاسم أن الناس سعدوا بهم وبحكمهم، ومع هذا الاختلاف بقي هذا الوصف ألصق بهم من طرف العامة والخاصة بغض النظر عن سبب ذلك الالتصاق.²⁸

²⁶ ينظر بيده عبدالرزاق ، ص 94.

²⁷ ينظر التنيكي ص 576 وما بعدها.

²⁸ ينظر أبو العباس الناصري ، 3/5 وما بعدها.

كان القرن العاشر الهجري مسرحاً لأحداث سياسية كثيرة وقودها الصراعات التوسعية بين:

- 1- الخلافة الإسلامية العثمانية القريبة من واحات تيكورارين وتوات إذ كانت تحكم الجزائر .
- 2- الدولتان الإسبانية والبرتغالية اللتان تتوسعان من جهة الغرب.

وبين هاته القوى ظهرت الدولة السعدية بالمغرب الأقصى وهي أضعف تلك القوى من جميع النواحي، وتشعر بالتهديد منها، فرأت أن تتوسع جنوباً على حساب الأضعف منها وهي ممالك السودان والمناطق البعيدة عن التجاذبات والقتال مثل منطقة توات وتيكورارين.

في عام 991هـ، خرجت حملتان عسكريتان لاحتلال المنطقة والتقتا بسجلماسة جنوب المغرب الأقصى ثم توجه الجيش الكبير إلى المنطقة قصد غزوها وضمها إلى الحكم السعدي يقول الفشتالي واصفاً تحرك الغزاة : "...وزحفوا إلى البلاد وخاضوا القفر نحوها في عساكر ضخمة اهتزت أقطار السودان لصيتها وداخلهم الرعب منها وواصلوا الترحال ويمموا تيكورارين من قبل توات بما كانت أحد شوكة وأصلب عودا واعتمدوا تينميمون منها قاعدة قصورها وأم قراها فنزلوا عليها لسبعين مرحلة من مراكش دار الخلافة وكانوا قدموا إلى أهلها كتب أمير المومنين بالإعذار والبراءة والدعاء إلى الطاعة والإرشاد إلى الدخول في حزب الهدى فأساءوا الرد ولاذوا بالمنع واستعدوا للحصار وسولت لهم نفوسهم القدرة على الدفاع .."²⁹

فكانت الوجهة الأولى لجيش السعديين هي تيكورارين؛ لأنهم أحد شوكة وذلك أن الساكنة استعدوا للمواجهة المسلحة فجمعوا ما أمكن من السلاح والعتاد وتوجهوا إلى عاصمة القصور والقرى وهي تينميمون للدفاع عنها؛ فبسقوطها سيسقط ما سواها، وبعد ضرب الحصار حصلت مناوشات بين الفريقين تمكن فيها السكان من قتل بعض الغزاة، وكان ذلك سبباً للهجوم الكاسح الكامل المدعم بالأسلحة الحربية المتطورة وهو البارود والمدافع التي لم يكن يعرف عنها سكان المنطقة شيئاً ورغم الدفاع المستميت والروح القتالية لكن سلاح الغزاة هو الذي كانت له الكلمة في فصل المعركة لصالحهم ويصف الفشتالي المعركة فيقول: " وضجت الأرض من صواعق النار الموقدة وأبلى القوم في الدفاع

²⁹ الفشتالي ص 76.

من وراء الجدران وامتنعوا من إلقاء اليد فأذاقهم العساكر نكال الحرب وساموهم سوء العذاب من النار الموقدة وإرسال الصواعق عليه عامة يومهم حتى توارت الشمس بالحجاب فوصلوه بالليل.³⁰ والظاهر أن القتال استمر أياما وليس يوما واحدا،³¹ وانتهى القتال بمذبحة عامة استبيح فيها كل شيء بالقتل والنهب والتخريب حتى قبض على أعيان البلاد ولا بد أن يكونوا فقهاء ومتصوفها لأنهم أصحاب الحل والعقد في المنطقة قبل قدوم الغزاة.³²

ثم بعد ذلك توجه الجيش الغازي إلى توات وبالتحديد إلى عاصمتها وهي تمنطيط، وكان رئيسها الشيخ عمر بن محمد بن عمر بن عبد الرحمن، وكانت لديه بعض مظاهر الدولة كضرب السكة ووجود الحرس بين يديه إلى غير ذلك، فتبادل الطرفان الرسائل وأخذ الأمان لقومه ولنفسه وأعلن دخوله في طاعة السلطان السعدي وهذا لما علم بما جرى لأهل تميميون من تقتيل وتخريب، ففضل أن يسلم بالطاعة وأن يذعن بالجباية والمغارم للسعديين يعطيها لهم اتقاء لبطشهم وتبعه على ذلك سائر قطر توات³³؛ ولما كانت بعض مناطق تيكورارين لم تذعن بالكامل وهي منطقة الشط الظهراني عاودوا الكرة عليهم مرة ثانية واستعانوا بفقهاء المنطقة ومنهم رئيس تمنطيط ليعظوهم ويثنونهم عن رفضهم الدخول في طاعة السعديين، ورغم ذلك لم يفلحوا في تغيير موقفهم فبدأ الغزاة برمي النار والبارود ثم اقتحموا الحصن الذي التجأ إليه المقاومون بأسلحتهم البدائية وقاموا بمجزرة

³⁰ الفشتالي ص76.

³¹ ينظر محمد الصغير الوفرائي، ص87؛ الناصري 98/5.

³² ينظر الفشتالي، ص76؛ وقد حصل الأمر نفسه في السودان لما غزاهم المنصور ووجد أهل تنبكتو يلتفون حول فقهاءهم ولم يبالوا بالسلطان المغربي فقبض عليهم وكان أبرزهم العلامة المالكي الشهير سيدي أحمد بابا التنبكتي؛ قال الناصري: "كان بنو أقيت التكروريون من أهل مدينة تنبكتو ومن لهم الوجهة الكبيرة والرياسة الشهيرة ببلاد السودان دينا ودنيا بحيث تعددت فيهم العلماء والأئمة والقضاة وتوارثوا رئاسة العلم مدة طويلة تقرب من مائتي سنة وكانوا من أهل اليسار والسؤدد والدين لا يبالون بالسلطان فمن دونه ولما فتح جيش المنصور بلاد السودان أبقاهم الباشا محمود على حالهم إلى أن كانت سنة اثنتين وألف فكان أهل السودان قد سئموا ملكة المغاربة وأنسوا منهم خلاف ما كانوا يعبدونه من سلطانهم الأول وكانت أذنهم مع ذلك صاغية لآل أقيت فتخوف المنصور منهم وربما وشي إليه بهم فكتب إلى عامله محمود بالقبض عليهم وتخريبهم إلى مراكش فقبض على جماعة كبيرة منهم كان فيها الفقيه العلامة أبو العباس أحمد بن أحمد بن أحمد ثلاثة أحامد ابن عمر بن محمد أقيت المدعو بابا صاحب تكميل الديباج وغيره من التأليف وكان فيها أيضا الفقيه القاضي أبو حفص عمر بن محمود بن عمر ابن محمد أقيت وغيرهما وحملوا مصفدين في الحديد إلى مراكش ومعهم حريمهم وانتهت ذخائرهم وكتبهم" الناصري 130/5.

³³ ينظر المصدر السابق ص77.

مروعة لم ينج منها النساء ولا الرضع بعد معركة حامية طوال النهار كما وصفها مؤرخ الدولة السعدية الفشتالي بقوله: "فتناولهم القتل وحكموا السيف في الرجال منهم والنساء والولدان حنقا عليهم حتى كلت سواعدهم فتنادوا يهدم القصبة عليهم واستئصال شأفتهم بالردم فلم يكن إلا كلمح البصر أو أقرب حتى أصرعوا جذرائها إلى الأرض وألصقوها بالرغم وهويت ردما على الخوارج، فلم تبق منهم ولا من حيوانهم وسائر من يدب على الأرض من نعمهم ودوابهم عين تطرف فأطبق على الجميع تيار الهلكة فأصبحوا مثلا في الغابرين وعادت منازلهم بلاقع كأن لم تغن بالأمس".³⁴ وطار خبر الانتصار إلى المنصور الذهبي فأقام حفلا لذلك وقال الشعراء في ذلك قوافي وكان ذلك سنة 998هـ.³⁵

2.3. التأصيل الفقهي للغزو:

يظهر من خلال ما كتبه الفشتالي وما كتب في الرسائل التي أرسلت من قبل الدولة إلى أهل المنطقة،³⁶ أنهم يتكئون على مستندات شرعية وأصول فقهية لتبرير غزوهم لأراض توات وتيكورارين وأهمها: أولا - عدم وجود سلطة أودولة، وثانيا وهو سبب متفرع عن الأول أن السلطة سواء كانت للفقهاء أم لأعيان البلد فهي سلطة منحلة ضعيفة. وهذين السببين يرجعان إلى أصل شرعي واحد وهو وجوب لزوم الجماعة التي لا بد لها من أمير وهذا يدعمه عدة نصوص حديثية منها:

1- حديث عبدالله بن عمر: "سمعت رسول الله ﷺ يقول: من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية".³⁷ فالبيعة واجبة على كل مسلم إذ لا يتصور مسلم يعيش هملا لا ينتمي إلى كيانه الإسلامي الواحد وهو ما تنشده النصوص وأيدته وقائع التاريخ على عوج فيها، إلى سقوط الخلافة العثمانية، "فمن كان من المسلمين لم يدخل تحت طاعة إمام فقد شابههم في ذلك، (أي أهل الجاهلية) فإن مات على تلك الحالة مات على مثل حالهم مرتكباً كبيرة من الكبائر ويخاف عليه بسببها ألا يموت على الإسلام".³⁸

³⁴ المصدر نفسه ص 78.

³⁵ ينظر المراكشي ص 87.

³⁶ ينظر عبدالله كنون، ص 105، 165.

³⁷ أخرجه مسلم كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، رقم 1851، 22/6.

³⁸ أبو العباس القرطبي، 59/4.

2- عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم».³⁹ فأوجب عليه الصلاة والسلام تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر، تنبيهاً بذلك على سائر أنواع الاجتماع... كذلك أوجب الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يتم ذلك إلا بقوة وسلطان، وكذا سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجمع والأعياد ونصر المظلوم وإقامة الحدود، وهي لا تتم إلا بالقوة والإمارة المستلزمة للولاية العامة.⁴⁰

فمثل هاته النصوص الصريحة ومراعاة القواعد الكلية للشريعة تستلزم لزوماً إقامة الخلافة وتعيين الأمير، إذ لا قوام للدين إلا بذلك، بل ولا للعالم إلا به، وليس لمسلم أن يعيش دون انتماء لسلطان بينهما بيعة شرعية تقتضي حقوقاً وواجبات بين الطرفين، وهذا بصرف النظر عن إشكالية ماهية الحكم ومدى سلطانه واستقلالته عن الخلافة الكبرى.

3.3 التبرير السياسي:

إضافة إلى ما ذكر سابقاً من أن الدولة السعدية شعرت بالتهديد في الشمال من الصراعات بين الكبار وهي الخلافة العثمانية على الوجه الأخص ثم الدولتان الإسبانية والبرتغالية، فإن هناك أسباباً جزئية أخرى جعلتها تتجه نحو صحراء قورارة وتوات وهي:⁴¹

- قطع الطريق على العثمانيين فهم أقرب إلى المنطقة من الناحية الشرعية؛ لأنهم يمثلون الخلافة الكبرى والدولة العظمى للمسلمين.
- الاستفادة من الطرق التجارية التي تمر من المنطقة وتربطها والسودان مع الجزائر وتلمسان.

- الحاجة إلى انتصار يقوي الروح المعنوية للدولة السعدية ويجعل لها مكاناً بين الدول.

- الاستفادة من الضرائب والغنائم التي ستفرض وتنتهب من الساكنة وجعلها زادا لاحتلال أراضي السودان قال الفشتالي: "... ورأى أيده الله أن يبدأ أمره بافتتاحه ويجعله ركاباً لما وراءه".⁴²

³⁹ أخرجه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في القوم يسافرون يؤمرون أحدهم، رقم 2608، 36/3.

⁴⁰ الموسوعة الفقهية الكويتية، ط: (من 1404 - 1427 هـ)، 140/45.

⁴¹ ينظر محمد نبيل ملين، ص 340.

⁴² ص 75.

4. موقف فقهاء تيكورارين وتوات من الغزو السعودي وأدلتهم الشرعية :

1.4 موقف فقهاء تيكورارين:

لم تسعفنا المصادر لشحها بموقف تفصيلي لفقهاء المنطقة من الغزو؛ لكن يمكن استنباطه من خلال تعامل الساكنة مع تلك الأحداث، فقد رأينا فيما سبق أن السلطة الروحية والاجتماعية والسياسية كانت للفقهاء، والعامّة منقادين لهم فيما يأمرهم به وخاصة في القضايا الكبرى التي تتصل بحياتهم، والظاهر جليا أن فقهاء تيكورارين هم الذين حرضوا على قتال الغزاة وكان مصيرهم الأسر، فقد أسر السادة والوجهاء بعد المعركة الطويلة التي قتل فيها الأطفال والنساء، وقبل بداية المعارك أرسل قادة جيش السعوديين رسالة من السلطان إلى رئيس قورارة يدعونه وقومه إلى الدخول في الطاعة ومما جاء في الرسالة⁴³: "المربط الخيّر الدين الأتقى الأنقى الأزكى المكرم الأثير أبي فلان بن فلان وصل الله كرامتكم" ولعله هنا يشير إلى أحد فقهاء قورارة الذين كانت لهم الكلمة في أهل المنطقة والغريب أن في الرسائل السعودية المطبوعة لم يذكر اسمه وكتب هكذا- أبو فلان بن فلان-، ويمكن أن يكون السبب هو موقفه الرافض الممتنع عن الدخول في طاعتهم فلم يريدوا أن يشهروا ذكره، على عكس الرسالة التي كتبت إلى تمنطيط فقد نوه بذكر رئيسها؛ لأنه دخل في طاعتهم ولم يعترض على احتلالهم للمنطقة، ثم يواصل صاحب الرسالة فيقول: "فكتابنا هذا إليكم من حضرتنا العلية الفاسية كلاها الله ولا جديد بحمد الله إلا ما عوده سبحانه لهذا الأمر العزيز من النصر والإقبال والبشائر المتواترة في البكر والآصال لله المنّة. وهذا والذي أوجب إليكم أكرمكم الله بتقواه ووفقكم لما يحبه ويرضاه إعلامكم أنه لما كانت تلكم البلاد من أجل ممالكنا التي لها عندنا الخطر والبال ونتوجه إليها بوجه الإيثار والاهتبال ونحني حماها من طوارق البغي والفساد باستئصال شوكة أهل الغي والعناد..." وهنا يشير إلى مرسل الرسالة فقد جاءت من مقر السلطنة بفاس ويبرر قدوم الجيوش إلى المنطقة بزعم نشر العدل وبسط الأمان وغير ذلك ، والمتبادر من الرسالة أنه يريد من الفقيه المرسل إليه أن يقنع الساكنة والناس بتلك الأهداف النبيلة المعلنة عنها في الرسالة فجاء فيها أيضا "وقدمنا إليكم هذا الخطاب الكريم تعريفا لكم وإعلاما أن كل من أوى إليكم من أهل الفساد ورجع عن غيه وبغيه وحاد وسلك بهدائكم طريق الرشاد وأقلع عن سوء فعله الذميم، من قبل أن يحل عليه به من سيوفنا المظفرة بالله العذاب الأليم.."

⁴³ ينظر الرسالة بتمامها: عبدالله كنون ، ص 165 وما بعدها.

والواضح هنا أن رئيس تميمون ولا ريب أنه من فقهاء وصلحاءها، كما ذكر في الرسالة السعدية، ومعه السادة والفقهاء لم يرحبوا بالغزو؛ بل أساءوا الرد وهذا ما عبر به الفشتالي كاتب الدولة، وامتنعوا عن الطاعة رغم ما قدمه فقهاء السعديين من مبررات وأسباب شرعية في نظرهم لاستباحة المنطقة المسلمة والمسالمة، ومن مظاهر ذلك:

-استمرار المعارك لمدة طويلة حتى استعانوا برئيس تمنطيط وشيخها لإقناع ما تبقى من المعارضين في تميمون.

-قيام ثورات قادها بعض الوجهاء والفقهاء ضد السلطة السعدية، مثل ثورة ابن أبي محلي في واد الساروة وهو فقيه له سلطة وصوت في كل من قورارة وتوات.

-عدم وجود تبعية كاملة للسعديين، فقد كان همهم الضرائب والنهب أما الحكم فغالبيه بقي في يد الفقهاء.

-مساهمة الغزو السعدي في تفكك المنطقة وظهور اقتتالات داخلية أتعبت الفقهاء في إخمادها، ويحكي ابن أبي محلي عن أحد المصالحات التي عقدها فقال: "فما زلت كذلك حتى سعيانا مع من شاء من أعيان تيجرايين ومرابطيها وفقهائها بإشارة منهم في الصلح بين قبائلها لشر طويل كان بينهم أظلمت منه البلد وما حولها، فنهضنا من الزاوية لذلك عامدين شيخ ودغاغ الشيخ علي بن موسى ببلده ليعقد الصلح عنده فانعقد معه ومعه شيوخ أهل حيحا ومن تبعهم من الفريقين فتم ذلك والحمد لله".⁴⁴

4.2 التأسيس الشرعي للفقهاء ومناقشة أدلة السعديين :

أ-التأسيس الشرعي لموقف فقهاء تيكورارين:

لما كان الهدف الحقيقي من وراء الغزو هو الجباية والأموال، كما صرح كاتب الدولة، وذكر أن السلطة تريد أن تتخذ المنطقة ركابا لما وراءها من أرض السودان الغنية بالذهب أيضا، تطفن فقهاء تيكورارين لذلك فحرضوا على القتال والمدافعة لموافقة النصوص الشرعية في معالجة مثل هذا الموقف، منها:

⁴⁴ عبد المجيد القدوري ، ص 58، 59.

- حديثه ﷺ: "من قتل دون ماله فهو شهيد"⁴⁵ وقد تكلم العلماء في معنى الحديث كلاما كثيرا مؤاده "جواز قتال المحارب، وعلى جوازه عامة العلماء، لكن الخلاف في قتالهم إذا طلبوا الشيء اليسير، كالثوب والطعام، هل يعطونه أو يقاتلون دونه؟ جمهور العلماء على جواز مقاتلة القاصد لأخذ المال بغير حق، وإن كان المال قليلا، لعموم الحديث، وشذ من أوجبه، وقال بعض المالكية: لا يجوز إذا طلب المال الخفيف، قال القرطبي: سبب الخلاف عندنا: هل الإذن في ذلك من باب تغيير المنكر، فلا يفترق الحال بين القليل والكثير؟ أو من باب دفع الضرر، فيختلف الحال. قال الأبي: والقول بمنع إعطائهم الشيء الخفيف هو المشهور."⁴⁶ ومن كلام القرطبي نرى أن الحديث تعضده قواعد كلية في الشرع ومعان كبرى وهي:

- دفع الضرر وهو أصل كبير في الفقه مستمد من حيثه ﷺ: "لا ضرر ولا ضرار".⁴⁷

- تغيير المنكر وهو ما تقوم عليه الشريعة من أولها إلى آخرها، فأرسال الرسل وبعث الأنبياء لم يكن إلا تغييرا للمنكر ورفعاً للظلم، والنصوص في الكتاب والسنة أكثر من أن تستقصى هنا.

ب- مناقشة أدلة فقهاء الدولة السعودية:

غالب ما أمكن لفقهاء السعوديين الاستدلال به لسلطتهم الغازية يستند على نصوص عامة؛ منها ما ذكر سابقا، ومنها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٥٩﴾.⁴⁸

وكل تلك النصوص إنما تنزل على من أعلن خروجه وتمرده على الخلافة الشرعية، وليس على حكم محلي كما هو عند السعوديين، فالخلافة الشرعية كانت في يد العثمانيين الذي اتسع حكمهم إلى الجزائر وكانت قريبة جدا من المنطقة لولا أن شغلهم جهاد البرتغال والإسبان.

⁴⁵ أخرجه البخاري، كتاب المظالم، باب من قاتل دون ماله، رقم 2348، 877/2.

⁴⁶ الدكتور موسى شاهين لاشين، 444/1.

⁴⁷ رواه مالك في الموطأ، كتاب الأفضية، باب القضاء في المرفق، رقم 31، 745/2.

⁴⁸ وقد ذكروا هذه الآية في رسالتهم إلى أهل توات، ينظر عبدالله كنون، ص 105.

وبذلك ينتقض ما يزعمه فقهاء التبرير للسلطان السعدي، فخلافتهم ليست شرعية ابتداء ولا دواما؛ أما ابتداء فلا يجوز وجود خليفتين في آن واحد. وهذا ما تقتضيه نصوص الشرع منها حديث مسلم: "...ومن بايع إماما، فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه، فليطعه إن استطاع. فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر"⁴⁹

أما دواما فممارساتهم التوسعية سواء في أرض تيكورارين أو في السودان تتسم بالبعد عن كل تعاليم الدين الحنيف، فالمعروف أن من أحكام القتال سواء قتال الكفار أو البغاة أو المحاربين، عدم قتل النساء والأطفال الذي ورد النبي عنه في عدة أحاديث منها ما جاء في الموطأ عن عبد الرحمن بن كعب، أنه قال: "نهى رسول الله ﷺ الذين قتلوا ابن أبي الحقيق عن قتل النساء والولدان". قال: فكان رجل منهم يقول: برحت بنا امرأة ابن أبي الحقيق بالصباح. فأرفع السيف عليها، ثم أذكر نبي رسول الله ﷺ فأكف. ولولا ذلك استرحنا منها."⁵⁰

لكن السعديين بدلا من مواجهة الإسبان الكفار شمالا والذين لا حرج في قتلهم وقتالهم، توجهوا إلى قتال المسلمين جنوبا، وارتكبوا الفظائع في كل من الصحراء والسودان؛ يقول المؤرخ المجهول الذي ألف كتاب تاريخ الدولة السعدية عن قتلهم الأبرياء في السودان: "...فكتبوا إلى السلطان وأعلموه بالظفر وأنهم قبضوا سلطان العبيد مع جموعه وأعلموه كيف كان القتال وما صنعوا بالبلاد والعباد فأمر بالمفرحات غدوة وعشية، ثلاثة أيام فرحا بقتل عباد الله المسلمين، والكل يلتقي عند الله تعالى الحكم العدل سبحانه"⁵¹ والأغرب من صنيع سلطان السعديين وما فعله في المسلمين، هو صنيع الفقهاء الذين باركوا له هذه الأفعال يقول المؤرخ المجهول عنهم بعد تهنتهم للسلطان بغزو السودان: "وأتاه المتفقهة والقواد وعلماء الظاهر العادمين البصائر والأمناء بغير حقيقة يهنونه في قتل أهل الإسلام وأخذ أموالهم وتمليك عيالهم وفرح بذلك وسر سرورا عظيما."⁵²

⁴⁹ كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، رقم 1472/3.

⁵⁰ رواه مالك بن أنس في الموطأ، كتاب الجهاد، باب النبي عن قتل النساء والولدان في الغزو، رقم 447/2.

⁵¹ مؤرخ مجهول، ص 68.

⁵² المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

فلو كانت سلطة السعديين اتسمت بالعدل والقسط، وكانت خلافة شرعية ما توانى فقهاء المنطقة في الدخول فيها، لكنهم علموا أنه لم يأت بهم إلى المنطقة إلا طلب الدنيا والاستفادة من خيرات المنطقة، ولهذا وجدنا من فقهاء المنطقة من كان طامحا بالإمارة كمحمد بن إسماعيل المساوي الجراي الذي مر معنا قول العياشي فيه أنه أعجوبة زمانه لولا وسوسة الإمارة، وكذلك ابن أبي محلي فقيه واد الساوره الذي قاد ثورة عنيفة كاد يطيح بها الحكم السعودي، و كانت الدولة السعودية قد بدأت في مرحلة التشتت والضعف بعد موت المنصور الذهبي الذي غزا منطقة توات وقورارة.

3.4 موقف فقهاء توات(تمنيط):

من خلال ماسبق بيانه من أحداث الغزو ظهر أن الفقهاء ووراءهم الساكنة والعامة من أهل المنطقة لم يكونوا على رأي واحد، فلما كان الصدام عنيفا وحادا، انتهى بمجازر دامية في حق أهل تيميمون وقصورها خاصة القصور الظهرانية منها، كان الموقف في توات يمثلهم رئيس تمنيط وفقهاءها أقرب إلى الإذعان والخضوع والاستسلام وفضلوا عدم المواجهة والقتال.

ومما ورد في رسالة السعديين وهي موجهة إلى توات خاصة دون تيكورارين: "...الجمع المرعي بالله تعالى المحفوظ والرهط الذي لدينا بعين الولاء ملحوظ الشيخ الأجل الأثير الأفضل الأبر الأرضى الأخص الأحظى الشيخ عمر بن محمد وجملة إخوانه وجماعته أهل تمنيط وتواته حفظهم الله ورعاهم وسلك بهم من طرق الرشاد وسبل السداد ما يخصب به روض مرعاهم سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.." ⁵³، ثم مضى يذكر في الرسالة، فضل الخلافة واتصال شرف حكام الدولة بالمقام النبوي ﷺ، ثم يشير إلى موقف رئيس أهل تمنيط ويحمده عليه بقوله: "...فقد أنتجت لكم مقدمات التدبير ما تحمد به إن شاء الله عقبى الصغير منكم والكبير في استيفاء وارف هذه الظلال، واستشراف أعذب هذا الزلال، والاعتماد على مركز علائنا والوقوف مع خط إستواننا.." ⁵⁴ وأما ثمن الدخول في الطاعة والجماعة كما قالوا في رسالتهم فهو الترحاب عند أهل السلطنة العلية !!، والقبول الحسن لهذا الموقف، جاء في الرسالة:

⁵³ عبد الله كنون وفيه الرسالة بطولها وتامها ص 105 وما بعدها.

⁵⁴ المرجع نفسه، ص 108.

"فتقوا بأن أبواب القبول والكرامة لكم مفتوحة، وقواعد الاعتناء بكم مفسرة مفتوحة، وتحلون من إكرامنا إن شاء الله محلا مرضيا ويقابلكم من إفضالنا وجه الإحسان جليا وتتسربلون من رعايتنا إن شاء الله أردية لا تبلى..⁵⁵ وهي وعود لم تتحقق، بل انخرم نظام المنطقة وضعفت سلطة الفقهاء، وصارت عرضة لمظالم الجبايات التي بنتزعها سلاطين المغرب إلى عهد العلويين.

4.4 التأصيل الشرعي لموقف فقهاء توات (تمنطيط):

وبما أن أبواب السياسة الشرعية تتسم بنوع من المرونة النسبية، فإن موقفهم له حظ من التوجيه الشرعي إذ مستنده المصلحة الراجحة ودفع مفسد عظيمة رأوها رأي العين لما جرى لأهل تيميمون من قتل ومجازر، فقرر رئيس تمنطيط وكبار علمائها أن يحقنوا دماء الناس ويدعنوا بالطاعة للغزاة باعتبارهم مسلمين، فلو كانوا كفارا لما حل لهم الدخول في طاعتهم بحال، فرأهم هنا يشبه رأي من شرع للحاكم المتغلب في الشريعة الإسلامية، فعند الفقهاء أنه: "لو خرج رجل على الإمام، فقهره، وغلب الناس بسيفه حتى أقروا له، وأذعنوا بطاعته، وبايعوه، صار إماما يحرم قتاله، والخروج عليه."⁵⁶ ومعاملة الإمام المتغلب في الطاعة والبيعة كالإمام العادل فيه إشكالات كثيرة، إلا أنه لا يستويان من كل وجه في الحق الذي لهما على الرعية عند جميع الفقهاء، فيعد فاسقا ابتداء بخروجه المسلح على الحاكم سواء كان جائرا أم عادلا، لما في ذلك من إهدار الدماء المعصومة، وإذا صار هو الحاكم بالغلبة والقهر وجبت طاعته للسبب نفسه وهو حقن الدماء ودرءا لمفسدة التفرق وخراب الدول، ولهم من النقل بعض الأدلة منها:

- حديث عبادة بن الصامت وهو قوله: "دعانا رسول الله ﷺ فبايعناه. فكان فيما أخذ علينا، أن بايعنا على السمع والطاعة، في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا. وأن لا ننازع الأمر أهله. قال إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان."⁵⁷

⁵⁵ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

⁵⁶ أبو محمد عبد الله بن قدامة، 8/526.

⁵⁷ أخرجه مسلم، كتاب الإمامة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية، رقم 1709، 3/1470.

قال ابن بطال بعد أن أورد مع هذا الحديث ما يعضده ويشبهه من نصوص نبوية أخرى: " في هذه الأحاديث حجة في ترك الخروج على أئمة الجور، ولزوم السمع والطاعة لهم والفقهاء مجمعون على أن الإمام المتغلب طاعته لازمة، ما أقام الجمعات والجهاد، وأن طاعته خير من الخروج عليه؛ لما في ذلك من حقن الدماء وتسكين الدهماء، ألا ترى قوله ﷺ لأصحابه: "سترون بعدى أثره وأموراً تنكروها"، فوصف أنهم سيكون عليهم أمراء يأخذون منهم الحقوق ويستأثرون بها، ويؤثرون بها من لا تجب له الأثرة، ولا يعدلون فيها، وأمرهم بالصبر عليهم والتزام طاعتهم على ما فيهم من الجور."⁵⁸

-وأقوى ما يستدل به في هذا الموضع هو المصلحة وجلبها والمفسدة ودرءها، وهو أصل كلي وباب من أبواب الشريعة الكبرى، بل مبنى الشريعة كلها عليه.

ولما كان هدف السعديين أخذ المال وفرض الجبابات فإن قاتلهم جائز وليس بواجب، فمن قاتلهم كما فعل أهل تيكورارين أخذوا بالعزيمة، وأهل توات أخذوا بالرخصة، لأن الفقهاء يقولون في حديث "من قتل دون ماله فهو شهيد" أن: "كل من قاتل على ما يحل له القتال عليه من أهل أو دين فهو كمن قاتل دون نفسه وماله فلا دية عليه ولا تبعة، ومن أخذ في ذلك بالرخصة وأسلم المال أو الأهل أو النفس فأمره إلى الله، والله يعذره ويأجره، ومن أخذ في ذلك بالشدة وقُتل كانت له الشهادة بهذا الحديث."⁵⁹

⁵⁸ ابن بطال 8/10.

⁵⁹ ابن بطال 607/6.

الخاتمة:

وفي ختام هذه المباحثات التاريخية والفقهية يمكن أن نخرج بما يأتي:

-السلطة السعدية لا يمكن أن تكون خلافة شرعية للمسلمين؛ بل الخلافة هي خلافة العثمانيين التي كانت أرض الجزائر وما سواها تحتها، وهم الذين لهم في جهاد أهل الكفر والبغي من الإسبان وغيرهم الباع الطويل، ولهذا فحملة السعديين لغزو تيكورارين وتوات ليس لها أي مبرر شرعي.

- كان المبرر الحقيقي لغزو السعديين على المنطقة هو الجباية والأموال، ولهذا فضل فقهاء تيكورارين -وهم أصحاب السلطة- ومعهم العامة مواجعتهم وقتالهم وكان قتالا شرسا وحربا ضروسا باعتراف مؤرخ السلطة عبد العزيز الفشتالي؛ إلا أن التفوق العسكري هو ما جعل الميزان يميل للغزاة فكانت المجازر والقتل الشنيع للسكانة والأسر للفقهاء والوجهاء هو مصير أهل تيكورارين.

-اختلف الموقف في توات عن نظيره في تيميمون، فكان الإذعان والطاعة والاستسلام تفضيلا للمحافظة على الأنفس والدماء من أن تزهد، وكلا الموقفين لهما مندوحة في الشريعة لكون الغازي أو المحارب مسلما وليس كافرا فتجب مقاتلته على كل حال .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

- مالك بن أنس في الموطأ، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت - لبنان، ن: دار إحياء التراث العربي، 1406 هـ - 1985 م.
- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، صحيح البخاري، ت: د. مصطفى ديب البغا، ط: 5، - دمشق - ن: (دار ابن كثير، دار اليمامة) 1414 هـ - 1993 م.
- أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، ن: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1374 هـ - 1955 م.
- أبو داود سليمان بن الأشعث الأدي السجستاني، سنن أبي داود؛ ت: محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت - صيدا -، ن: المكتبة العصرية.
- فرج محمود فرج، إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، ن: ديوان المطبوعات الجامعية، - بن عكنون- الجزائر، 1977 م.
- أحمد بالصافي جعفري 2011، من تاريخ توات أبحاث في التراث، ط: 1، الجزائر، منشورات الحضارة، 2011 م.
- أبو فارس عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء، ت: عبد الكريم كريم، ط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، المغرب.
- الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، ت: محمد حجي، ط: 2،، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983 م.
- عبد الرحمن بن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ت: أ. خليل شحادة، د. سهيل زكار، ط: 1، بيروت، ن: دار الفكر، 1401 هـ - 1981 م.
- أحمد بابا التنبكي، نيل الانتباه بتطريز الديباج، عناية وتقديم: الدكتور عبد الحميد عبد الله الهرامة، ط: 2، طرابلس - ليبيا، ن: دار الكاتب، 2000 م.
- محمد بن محمد بن عمر بن علي ابن سالم مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، علق عليه: عبد المجيد خيالي، ط: 1، لبنان، ن: دار الكتب العلمية، 1424 هـ - 2003 م. خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي، الأعلام، ط: 15، ن: دار العلم للملايين، - 2002 م.
- محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، الرباط، ن: دار المغرب.
- أبا الصافي أحمد جعفري، الحركة الأدبية في أقاليم توات من القرن 7هـ حتى نهاية 13هـ، ط: 1 - الجزائر، ن: منشورات الحضارة، 2009 م.
- القادري محمد بن الطيب، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، ت: محمد حجي وأحمد التوفيق، - الرباط، ن: دار المغرب، 1397 هـ - 1977 م.
- عبد الله بن محمد العياشي، الرحلة العياشية، ت: سعيد الفاضلي، سليمان القرشي، ط: 1، الإمارات العربية المتحدة، ن: دار السويدي، - 2006 م.
- القادري، محمد بن الطيب، التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبير من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر، ت: هاشم العلوي القاسبي، ط: 1، بيروت، ن: دار الآفاق الجديدة، 1403 هـ - 1983 م.

- شهاب الدين أحمد الطاهر بن عبد المعطي السباعي الإدريسي، نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات ومن دفن فيها من الأولياء والصالحين والعلماء العاملين الثقات، ت: خير الدين سعدي، مذكرة مقدمة لنيل شهادة ماجستير في تاريخ الحديث والمعاصر ، نوقشت بجامعة قلمة، 2013م.
- بيدة عبدالرزاق أسبوع المولد النبوي الشريف بإقليم قورارة دراسة أنثروبولوجيا، رسالة ماجستير نوقشت عام 2018م جامعة وهران.
- أبو العباس شهاب الدين أحمد بن خالد بن محمد الناصري الدرعي السلاوي ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ت: جعفر الناصري/ محمد الناصري،- الدار البيضاء، ن: دار الكتاب.
- محمد الصغير بن الحاج بن عبدالله الوفرائي النجار المراكشي الوجار، تزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تصحيح: السيد هوداس، ط: بردين –مدينة انجي- 1888م.
- عبدالله كنون، رسائل سعدية، دار الطباعة المغربية-تطوان- المغرب-1954م.
- أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ، ت: محي الدين ديب مستو وآخرون، ط: 1، دمشق – بيروت، ن: دار ابن كثير ، 1417 هـ- 1996 م.
- وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – الكويت، الموسوعة الفقهية الكويتية، (من 1404 - 1427 هـ).
- محمد نبيل ملين، السلطان الشريف الجذور الدينية والسياسية للدولة المخزنية في المغرب، ترجمة:عبدالحق الزموري وعادل بن عبدالله، ط: الرباط، 2013.
- عبد المجيد القدوري ، ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليت الخريت، منشورات عكاظ، المغرب.
- الدكتور موسى شاهين لاشين، فتح المنعم شرح صحيح مسلم، ط: 1، ن، دار الشروق ، 1423 هـ- 2002م.
- مؤرخ مجهول، تاريخ الدولة السعدية التمكدارتية، ت: عبدالرحيم بنحادة، ط: 1 -مراكش- ن:عزيزن المقالات، دار تنمل، 1994م.
- أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المغني على مختصر: أبي القاسم عمر بن حسين بن عبد الله بن أحمد الخرقى، ت: طه الزيني وآخرون، ط: 1، ن: مكتبة القاهرة، 1388 هـ= 1968 م.
- ابن بطلال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك ، شرح صحيح البخاري ، ت: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، ط: 2، الرياض، ن: مكتبة الرشد -السعودية، 1423هـ- 2003م.
- أبو فارس عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء، ت:عبد الكريم كريم، ط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، المغرب المؤلفات: المؤلف(ة)، عنوان الكتاب، ط،، مكان النشر: الناشر، سنة النشر.